السيرة

في الفن الاسلامي

للدكتور زكي محمد حسن
مدرس الآثار الاسلامية في جامعة فؤاد الاول

صح عند بعض الباحثين من المحدثين أن ما ورد في الاحكام الاسلامية خاصًا بالنحت والتصوير لا يفيد التحريم القاطع، وقد ذهبوا في تأويل ما ورد من الأحاديث وتحقيقه مذاهب شتى تنطي ان تحر لاشتغال بهذا الفن لم يكن إلاّ تمثيلاً للرأي السائد بين الفقهاء في بداية القرن الثالث الهجري

والرأي عندنا ان النبي عليه السلام، والخلفاء الراشدين من بعده، لم المتمسكين بالدين من بني أمية هو عن التصوير ليحموا المسلمين من الأصنام والتماثيل والصور التي قد تقود البسطاء الى نسيان الخالق او اتخاذها وساطة له، او عبادتها لذاتها، فضلاً عن ان رجال الدين كانوا يضرون عمل الصور او التماثيل محاولة متطاولة في تقليد الخالق عزّ وجل

وقد كانت كراهية التصوير عامة بين رجال الدين من سنيين وشيعة، وليس صحيحاً ما يزعمه البعض من ان المذهب الشيعي لا يعترف بهذا التحريم. فالواقع ان في كتب الحديث الشيعية أحاديث تحريم التصوير، وان حكم رجال الدين من الشيعة هو عينه حكم أهل السنة في كراهية الصور والتماثيل

على ان تحريم التصوير في الاسلام لم يقض على هذا الفن قضاء تامًا. ونظرة الى تاريخ الفنون الاسلامية تقنعنا بأن بعض القوم في كثير من الاحيان لم يكترث لهذا التحريم، وان هذا التهاون كان يحدث في شتى أقاليم الامبراطورية الاسلامية. فازدهر فن التصوير في بعضها، ولاسيما في الاقاليم التي كانت لها تقاليد فنية عظيمة في النحت والتصوير، كايران، وفي البلاد التي تأثرت بايران في هذا الصدد، وخضعت في بعض حقبات التاريخ لنفوذها الثقافي، كالهند وتركيا، ومصر في عصر الدولة الفاطمية

ولكن الذي لا شك فيه ان الاسلام — كشريعة سوى — لم يتخذ الفن عنصراً من عناصر الحياة الدينية، ولم يشمله برعايته، فان تحريم الصور الآدمية، إن لم يكن لوحظ واتبع

شكل ٦ – صورة خيالية تمثل قصة المعراج

شكل ١ — صورة خيالية لمولد النبي صلى الله عليه وسلم

شكل ٢ — صورة خيالية تمثل النبي عليه السلام ، مع الراهب بحيرى

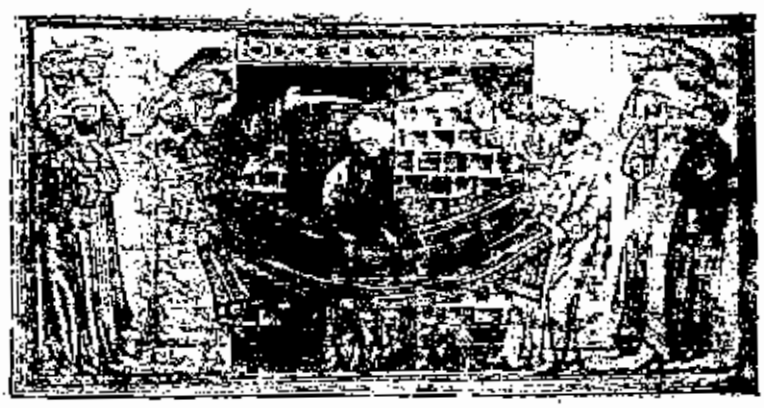

شكل ٣ — صورة خيالية تمثل النبي عليه السلام يحمل الحجر الأسود ليضعه في مكانه

تراجع هذه الصور مع مقال الدكتور
ذكي محمد حسن مدرس الآثار الإسلامية في
كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (ص
٢٨٨ من هذا الجزء)

شكل ٤ — صورة خيالية للنبي عليه السلام يتلقى الوحي في غار حرا

شكل ٥ — صورة خيالية تمثل النبي عليه السلام ومعه أبو بكر الصديق
في الغار ، يوم الهجرة النبوية

في كل العصور والاقطار الاسلامية ، فقد كان دون استخدام التصوير في المصاحف وفي المعائر الدينية كالمساجد والأضرحة — اللهم إلا في حالات نادرة جداً — فأصبحت المساجد والمكتب خالية من صور يستعان بها على شرح العقيدة وتقريبها الى المؤمنين ، او على توضيح تاريخ العقائد الدينية وسيرة أبطال الملة ، كما في المسيحية والبوذية والمانوية

أجل ، إن بعض المسلمين من ذوي الافكار الحرة والتسامح الديني كانوا يرون — منذ العصور الوسطى — ان تحريم التصوير في فجر الاسلام كان يقصد به محاربة عبادة الاوثان التي كان المسلمون لا يزالون حديثي العهد بتركها ، وأما بعد أن توطدت دعائم الاسلام وتغيرت حال المسلمين الاجتماعية فليس في التصوير ما يخالف تعاليم الدين الحنيف وأصوله . وصحيح أن الايرانيين كانوا أكثر الشعوب الاسلامية مخالفة لتعاليم الاسلام في النهي عن التصوير ، ولكن رجال الدين في ايران كانوا يكرهون التصوير والمصورين ، شأنهم في ذلك شأن رجال الدين في سائر انحاء العالم الاسلامي . وهكذا نرى ان الاسلام لم يكن فيه فن ديني قط ، اللهم الا اذا حسبنا عمارة المساجد والأضرحة وكتابة المصاحف بالخط الجميل

ولكن بعض المصورين الايرانيين عرضوا — فيما رسموه من الموضوعات — الى بعض الحوادث ذات الصبغة الدينية فصوّروا الرسل والأنبياء ، صوّروا محمداً صلى الله عليه وسلم وأتوا برسم خيالي له في صور توضح بعض حوادث السيرة النبوية ، على نحو الصور التي رسمها المصورون الغربيون في العصور الوسطى لتوضيح بعض الحوادث في سيرة السيد المسيح عليه السلام أو اتباعه من الرسل والقديسين

وطبيعي ان الصور ذات الموضوعات الدينية نادرة جداً لأنه اذا كان محرماً رسم الكائنات الحية بوجه عام ، فكم يكون محرماً ومحتوماً ان يصور خاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم

وأكبر الظن ان الفنانين لم يحاولوا في فجر الاسلام ، ان يصوروا اي حادث من السيرة النبوية ، فان اقدم الصور التي نعرفها في هذا الميدان ليس بينها ما يرجع الى ما قبل القرن الثامن الهجري ، (الرابع عشر الميلادي)

ولكننا نعرف حديث صورة للنبي عليه الصلاة والسلام رآها سائح عربي في الصين إبان القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وأشار اليها المسعودي في « مروج الذهب » ، في الفصل الذي عقده للحديث عن ملوك الصين . قال بعد الكلام عن رجل قرشي من ولد عمار بن الأسود انتهى به المطاف الى بلاد الصين فاستدعاه ملكها عند ما علم بقرابته من نبي العرب صلى الله عليه وسلم :

« ثم قال للترجمان قل له أتعرف صاحبك إن رأيته يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال القرشي : وكيف لي برؤيته وهو عند الله عزّ وجل ، فقال لم أرد هذا وانما أردت صورته

فقلت أجل فأمر بسفط فأخرج فوضع بين يديه فتناول منهُ درجاً وقال للترجمان أره صاحبه فرأيت في الدرج صور الأنبياء فحركت شفتي بالصلاة عليهم ..... نوح عليهِ السلام في سفينة ..... وموسى عليهِ السلام وبنو اسرائيل ..... وعيسى بن مريم عليهِ السلام ، على حماره والحواريون معهُ ..... ثم رأيت صورة نبينا محمد صلى الله عليهِ وسلم على جمل وأصحابه محدقون بهِ في أرجلهم نعال عربية من جلود الإبل وفي اوساطهم الحبال تدعلقوا فيها المساويك »

وليس ببعيد الاحتمال ان تكون هذه الصور قد وجدت حقًّا وقد يكون صانعوها من اهل الصين انفسهم ، والمعروف ان علاقتهم التجارية ببلاد العرب ترجع الى العصور القديمة كما يحتمل ان تكون من صناعة الفاطرة الذين نزحوا من الشرق الادنى واستقروا في الصين منذ القرن الاول الهجري (السابع الميلادي)

على ان اقدم الصور التي وصلتنا لبعض حوادث السيرة النبوية موجود في مخطوط من كتاب « جامع التواريخ » للوزير رشيد الدين ، جزء منهُ محفوظ في الجمعية الأسيوية بلندن والجزء الآخر في مكتبة جامعة ادنبره باسكتلندة . وهذا المخطوط مؤرخ بين عامي ٧٠٧ و ٧١٤ بعد الهجرة (١٣٠٧ — ١٣١٤) وفي صورهِ موضوعات من السيرة النبوية والتاريخ الاسلامي ، والانجيل وتاريخ الهند والديانة البوذية ولا عجب فقد كان هذا الكتاب يشتمل على التاريخ العام الذي كان معروفاً في ذلك الحين

ولا تزال في المخطوط المذكور ، صور خيالية ، تمثل أحداها مولد النبي صلى الله عليهِ وسلم ، وعليها العبارة الآتية باللغة الفارسية : « ولادت همايون بادشاه كائنات عليهِ السلم » (انظر شكل ١) وتمثلهُ الصورة الثانية في الشام حين رآه الراهب بحيرا ، وتنبأ له صلى الله عليهِ وسلم بالشأن العظيم (شكل ٢) . أما الصورة الثالثة ففيها رسمه عليهِ السلام يحمل الحجر الاسود ليضعهُ في مكانهِ من الكعبة ، بعد أن حمله زعماء مكة على نسيج يمسك كل منهما بطرف منهُ (شكل ٣) . وفي الصورة الرابعة رسمه صلى الله عليهِ وسلم يتلقى الوحي من سيدنا جبريل في غار حراء (شكل ٤) . أما الخامسة تمثلهُ مع أبي بكر الصديق في الغار ، وبجوارهما سيدة تحلب شاة ، وذلك أثناء الهجرة النبوية الى يثرب (شكل ٥) . أما الصورة السادسة فتمثل حادث المعراج

والواقع أن قصة المعراج كانت أحب قصص السيرة النبوية الى الايرانيين فرسموها في عدد كبير من الصور والمخطوطات ، ولكننا لا نعرف صورة لهذه القصة أصاب فيها الفنان حظًّا من التوفيق والسمو أوفر من صورة المعراج في مخطوط من المنظومات «الخمس» للشاعر نظامي كتب في تبريز بين عامي ٩٤٦ و ٩٩٤ هـ (١٥٣٩—١٥٤٣) للشاه طهماسب يد الخطاط المشهور شاه محمود النيسابوري ، ويفخر اليوم بحيازته المتحف البريطاني . فان الناظر يؤخذ لأول وهلة بابداع

ألوان هذه الصورة وجلال مظهرها (شكل ٦) . ويرى فيها السماء بسحبها البيض ، والنبي عليه السلام راكباً فرسه « البراق » ذات الوجه الآدمي . وفي يمين الصورة بالجزء السفلي ترى الارض التي تركها النبي وحولها غلاف ابيض كروي وأمام النبي سيدنا جبريل يقود الركب في السموات وبين الرسول وسيدنا جبريل ملك يحمل مبخرة معلقة في عصا ويخرج منها لهب ذهبي . وعلى يسار النبي صلى الله عليه وسلم ملك آخر يحمل صحناً فيه بخور يحترق ، وفي الصورة ملائكة آخرون يحمل بعضهم أطباقاً من الجواهر والفواكه وفي يد أحدهم تاج ثمين

وصفوة القول أن في هذه الصورة خيالاً واسعاً وحركة وحياة تجعلها من أبدع آيات التصوير الايراني كما أننا نلاحظ في رسم النبي عليه السلام ما اتبعه الفنانون الايرانيون في معظم الاحيان من إخفاء ملامح الرسل ، وذلك على عكس رسمه في الصورة المحفوظة في كتاب جامع التواريخ ، فان المصور لم يتبع فيها هذه القاعدة ، وانما ابتدع رسماً خيالياً للنبي عليه السلام ملؤه الجلال والوقار ، ولم يحطه بهالة من النور ، كما كان الفنانون يفعلون في معظم الاحيان حين يرسمون الرسل والانبياء

وثمت مخطوط آخر فيه بعض صور من السيرة النبوية وهو نسخة من كتاب « الآثار الباقية » للبيروني محفوظة في مكتبة جامعة ادنبره ومؤرخة من سنة ٧٥٧ هـ (١٣٠٧ — ١٣٠٨) . وفي إحدى هذه الصور نرى رسم النبي صلى الله عليه وسلم ، وحول رأسه هالة من النور ، وقد امتطى جملاً وبجواره السيد المسيح عليه السلام ، ممتطياً حماراً

كما نرى في مخطوط ثالث من كتاب « روضة الصفا » لميرخواند صورة النبي في الكعبة عام الفتح يحطم الاصنام وقد رسمه المصور يحمل سيدنا علياً فوق كتفيه ليصل الى الاصنام العالية فيتناولها ويلقي بها على الارض ، كما نرى في المخطوط نفسه رسماً يوضح حادث غدير خم بعد حجة الوداع ، وهو الذي يذهب الشيعة الى ان النبي صلى الله عليه وسلم أوصى عنده بالخلافة للامام علي كرم الله وجهه . ونلاحظ في هذه الصورة ان الفنان رسم حول رأس الامام علي هالة من النور ، مما يدل على انه كان فناناً شيعي المذهب

وثمت مخطوطات أخرى فيها صور بعض الحوادث من السيرة النبوية ، حسبنا ان نشير الى وجودها ، وان نستنبط منها ومن غيرها ان الفنانين الايرانيين وتلاميذهم عمدوا في بعض الاحيان الى السيرة ، فرسموا بعض حوادثها ، لتوضيحها وتحلية المخطوطات التي كانت تسردها على نحو ما وضحوا بالصور قصص الرسل الآخرين . واذا استثنينا حادث غدير خم ، وهو الذي يعتقد به الشيعة ، فان سائر ما صوره الفنانون من السيرة يشمل بعض الاحداث العظيمة الشأن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم